

كتب بالإنجليزية

كنزاً دفيناً قيماً وغنياً من المواد التاريخية والأدبية التي تتضمن مذكرات ويوميات شخصية كتبها عينة متنوعة جداً من المثقفين الفلسطينيين في أواخر العهد العثماني، وقد قدم تماري، بالتعاون مع مثقفين آخرين مثل عصام نصار، خدمة حقيقية في استعادة المواد، ونشرها، واستخدامها.

يتألف الكتاب، بصورة عامة، من نوعين من المقالات: الأول، يفسر التغيرات الاجتماعية التي شهدتها المجتمع الفلسطيني من خلال دراسة ظواهر مثل علاقات الفلسطينيين المتعارضة بالبحر، والانقسامات الثقافية بين أهالي الساحل والأهالي داخل البلد، وتطور اعتبار الثقافة الريفية والحياة الشعبية "الأصيلة" والأسطورية كما لو أنها ذات وجود مادي، وذلك من خلال أعمال بدأها سكان "أصليون"، مثل الطبيب الإثنوغرافي توفيق كنعان، وحوارات بين ثلاثة أجيال من ضحايا النكبة تمحورت حول ذكريات عن النكبة/العودة أعطيت شكلاً مثالياً وجرى تركيبها بطريقة انتقائية: الثاني، يتألف من أبحاث تستند إلى سير ذاتية لمثقفين فلسطينيين، مثل: المرّبي خليل السكاكيني الذي يصف نفسه بأنه "أمير الكسل والتبطل"، والموسيقيار الساعي وراء المتعة واصف جوهرية، و"آخر سيد إقطاعي"، عمر

الجبل ضد البحر: مقالات عن المجتمع والثقافة الفلسطينيين*

Mountain Against the Sea: Essays on Palestinian Society and Culture

Salim Tamari

Berkeley: University of California Press, 2009. 237 pages.

التي ساهمت في صنع حداثة فلسطينية "غير مكتملة" (ص ٣). إنه يضع الحياة الحضريّة الفلسطينية، والمجتمع، والمثقفين والثقافة الفلسطينية في سياق شرق متوسطي، ويبين كيف أن فلسطين كانت جزءاً متناغماً مع هذه البيئة الشرق المتوسطية، لكنها، في النهاية، "نُحيت جانبا" نظراً إلى كونها "فُصلت قسراً عن ذلك السياق" (ص ٤) في سنة ١٩١٧. وعلى الرغم من أن أغلبية المقالات تاريخية، أو تتميز بنزعة تاريخية قوية، فإنها تشمل أيضاً مواد تتعلق بالمجتمع الفلسطيني المعاصر، فدمجها في خلفيتها التاريخية، وتتبع التأثيرات التاريخية التي شكّلت الظواهر المعاصرة. ويعرض الكتاب

أنجز سليم تماري، وهو أستاذ جامعة بيرزيت ومدير مؤسسة الدراسات المقدسية، دراسة ممتعة وساحرة وواسعة الاطلاع عن المجتمع والثقافة الفلسطينيين، فتحدث بإعجاب، وأكثر من مرة، عن أسلوب المرّبي خليل السكاكيني في الكتابة باللغة العربية ووصفه بأنه "عملي وخال من الزخرفة" (ص ٢). وتماري، في مقالات هذا الكتاب، والتي تم نشر العديد منها سابقاً، يكتب هو أيضاً، بأسلوب "عملي وخال من الزخرفة" إلى حد كبير، مركزاً على الموضوعات التي تُعرف بالتاريخ والنسيج الاجتماعي والتجربة الفلسطينية. وهو مهتم، قبل أي شيء، بالحدائث، وبالعناصر

(* المصدر: Journal of Palestine Studies, vol. XL, no. 1 (Autumn 2010), pp. 94-104.

الصالح [البرغوثي] من دير غسانه، والكاتب العربي - اليهودي إسحاق الشامي، وأحد كوادر الحزب الشيوعي الفلسطيني، نجاتي صدقي. وثمة تفاوت ضئيل بين عدد قليل من تلك المقالات، إذ إن بعضها أكثر اكتمالاً وأغنى، من حيث عمق البحث والاكتشاف، ويعود ذلك أساساً إلى طبيعة المصادر الأولية (تفاوت إلى حد كبير أنواع المادة التي قدمتها مصادر السير الذاتية، ويكمن بعض الثغرات البارزة في غياب مذكرات أو يوميات نسائية، وفي بعض الحالات، معلومات شخصية عن الكتاب الذكور). هناك خيوط وموضوعات معينة تربط بين هذه المقالات، فثمة فكرة تعاود الظهور، مراراً وتكراراً، في سياق الكلام على الحداثة التي لم تكتمل، وهي كيف أن إحدى النتائج الرئيسية للنكبة، كانت فقدان فلسطين مكتسباتها الحضرية (المدينة)، وتجردتها "فعلياً من مدنها الساحلية، وإزالتها، على المستوى الثقافي، من التقاليد العالمية الحضرية" التي "انتقلت إليها من خلال صحافتها، وأحزابها السياسية، ونقاباتها العمالية، وثقافتها العلمانية" (ص ٤٥). ويهتم تماري بالانقسامات والصراعات الظاهرية بين الكوزموبوليتانية (النزعة العالمية) والنزعة المحلية، وبين المجتمعات الساحلية والجبلية، وقبل أي شيء، بالتوترات والتناقضات الداخلية التي أنتجت رداً الفعل الفلسطينية

إزاء التحولات الاجتماعية والحداثة وتفاعلات الشعب الفلسطيني معها. وهو يفكك، بصورة حاذقة، الفرضيات الأساسية بشأن "التقليد"، والبساطة، أو السلبية، من جانب أشخاص وجماعات تاريخية فاعلة، ويبيّن، بدلاً من ذلك كله، السلاسة، والدينامية، والازدواجية التي ميّزت أفعالهم وردودهم على تجاربهم. وفي الفصل المتعلق بإقامة خليل السكاكيني في الولايات المتحدة خلال الفترة ١٩٠٧ - ١٩٠٨، على سبيل المثال، حلّ تماري إشكال المفارقة الظاهرية المتمثلة في ردة الفعل المحافظة لأدباء حضريين وغير تقليديين في تفكيرهم تجاه بعض مظاهر الثقافة والمجتمع الأميركيين، ونفورهم من هذه المظاهر (وأبرزها التفاعلات بين الذكور والإناث). وفي سياق وصفه كيف أدى تدفق المهاجرين من الريف إلى تعقيد العلاقة الاستغلالية بين المدينة والريف، يشرح تماري كيف "أن ثقافة المجتمع الريفي، من جهة، غزت المدينة، في حين تفتشت [من جهة أخرى] في المجتمع الريفي [ثقافة] السلع والمال الحضري" (ص ٤٨). ولا تسفر استكشافات تماري عن أي تجاور أو استقطاب بين "التقليد" و"الحداثة"، فهذان المفهومان تأسيسيان بصورة متبادلة، وتتوسطهما تأثيرات متباينة ومتفاوتة تنساب في اتجاهات متعددة. ويتمثل أحد جوانب هذا الكتاب الأكثر إبهاماً في عرضه صورة

جماعية للحظة معينة ومهمة في التاريخ الفلسطيني (أواخر العهد العثماني - بداية الانتداب)، تم ابتداعها من المادة المتضمنة في السير الذاتية. ويتميز تصوير تماري للمجتمع الفلسطيني بكونه أكثر تعقيداً، ودينامية، وتنوعاً مما قدّم سابقاً: الأشخاص الذين يصفهم، وطابع مدينة القدس الذي يسترجعه، مفعمان بالحيوية بشكل استثنائي؛ القدس، بعيداً عن كونها "المدينة المتجهمة والمحافظة والكنيئة" (ص ٨٨)، مثلما يصورها بعض الأشخاص، تظهر هنا بصفتها بيئة حضرية تتسع للمتعة (كما يوضح ذلك [سلوك] واصف جوهريّة الذي شارك في "جلسات لهو وعريضة مع أفراد عصابات وسفاحين" [ص ٨٠])، وتتسع للتبطل (الفلسفة الرئيسية لعضو "حزب المتشردين"، خليل السكاكيني)، وللشبان البالغين سن الرشد (تحول عمر الصالح من [التمسك بـ] الامتيازات الريفية [الموروثة من مكانة عائلته] إلى الكوزموبوليتانية)، والتحول إلى الشيوعية (نجاتي صدقي)، كما تتسع لعلاقات الطوائف فيما بينها، وهذا بعض ما اتسمت به القدس آنذاك. ويتمنى المرء لو أن هذه الثقافة وهذا المجتمع مزدهران اليوم، لكن، لحسن الحظ، نجد في هذا الكتاب الرائع إحياء لهذه اللحظة الفريدة من التاريخ الفلسطيني.

ألين فليشمان

أستاذة مشاركة في التاريخ

في جامعة دايتون - الولايات المتحدة